صوت المرأة المسلمة

العدد : ٢٢٠ الموافق في صفر ١٤٢١ هجري ٦/٢٠٠٠ ميلادي

| عنوان المقال : الفقر والغفلة | بقلم : هدى الأندونيسية |
|---|---|

وأخيراً حطت الطائرة رحالها بعد رحلة دامت ساعات طوالاً ، بدأت من خلالها الصور تتسارع أمام ناظري .. صور عليَّ أن أستنبط منها القدر الأكبر من النتائج والعبر .

بدأت الصور بعشرات العاملات اللواتي تجمعن في المطار الدولي لدولة خليجية في انتظار عودتهن إلى أرض الوطن . ربما طالت غيبتهن عن الوطن مثلي .. عشرة أعوام طويلة ..

وحاولت النوم في الطائرة ، ولكن ضجيج هؤلاء المسافرات كان يملأ الطائرة . إنهن يتحدثن ؛ كل واحدة عن تجربتها ، أين عملت ؟ كيف عوملت ؟ عن أحلامها عندما تصل إلى قريتها ..

وانتابني شعور بالحسرة على هؤلاء الفتيات والزوجات والأمهات ، اللواتي اضطررن بسبب قسوة الظروف إلى أن يتخلين عن بيوتهن وأهلهن وذكرياتهن وأحلامهن ، فذهبن إلى بلاد بعيدة ، هي في نظرهن بلاد مقدسة ، إنها موطن القرآن ، موطن الكرم والشهامة والإنسانية .. فإذا البعض منهن يعود بتجارب مريرة مزقت كل الصور التي رسمت عن تلك البلاد ، بلاد العرب ...

ووصلت إليك يا جاكرتا .. يا مدينة العشرة ملايين .. عشرة ملايين يتجولون في شوارعك ثم يغادرك مليونان ليعودوا إلى قراهم المحيطة بك .

عندما دخلت في سمائك أردت أن أحمل إليك عبق الشام وعبيرها . أردت أن أحمل إليك سعادة الشام وأمنها .. طيبة أهلها وكرمهم .. أردت أن أحمل إليك كل ما علمته وشاهدته وأحسست به خلال سنين .. أردتك أن تكوني كأجمل ما في الشام من مشاعر وأخلاق وإنسانية ...

ولكن ، وما إن استنشقت هواءك حتى شعرت بضيق لا أدري مصدره .. أهو هواؤك الملوث الذي لا خيار لنا في استنشاقه .. ؟ أهي قسوتك على قاطنيك .. ؟ أهو الفقر الذي يدق عظام ساكنيك .. ؟ أهي الغفلة التي يعيشها الكثير من أهلك .. ؟

إن الاختناقات المرورية في شوارعك والتي جعلت ثلث حياة المرء تضيع على الطرقات لهو خسارة كبيرة .. فكيف لمن امتلأت رئته بهوائك الملوث ، وذابت قواه في طريقه إلى عمله أو منزله ، أن

ينتج أو يتقن أو يبدع ... ؟

وعندما حلَّ الظلام ، رأيت العربات ذات الأرجل الخمس ، وكثير منها تدفع من قبل نساء وفتيات اضطررن لترك بيوتهن للبحث عن لقمة تسد رمقهن .. واستغربت .. إن عملت المرأة في أغلب المواقع فأين يعمل الرجل ؟ وإن عملت المرأة فمن يربي الأجيال ؟ وإن عملت المرأة فمن يحفظها من عيون نهمة لا تشبع ؟ وأين الرجل ؟ أليست مهمته أن يسعى على رزقه ورزق من يعول من النساء ، أماً أو زوجةً أو بنتاً أو أختاً ..

وتقف بنا السيارة أمام إشارة المرور ، وإذا بالعشرات من البائعين المتجولين يتكاثرون حول السيارة ليبيعونك كل ما قد يخطر على بالك .. ومن لا يملك مالاً يكفيه لشراء بعض البضاعة ، فيكفيه خشبة مربوطة بصنجات يهز بها أمام نافذة سيارتك مقابل بضع روبيات .. وفوجئت بطفلة صغيرة لم تتجاوز الرابعة من عمرها ، عارية القدمين ، تستجدي نقوداً تعيل بها نفسها أو ربما أهلها .. فشعرت بالأسى يعصف بما بقي في قلبي من تفاؤل .. أما كان لهذه الطفلة أن تكون الآن في أحضان أمها تنعم بالحنان ، تستمع إلى حكايات جدتها ، ترسم وتلعب وتلهو .. من ستكون هذه الطفلة عندما تكبر .. ما هي الصور التي ستظل منطبعة في مخيلتها إلى أن تغادر هذه الحياة ..

والأغرب من ذلك أن ترى رجلاً قد لبس ملابس النساء ، ولون وجهه بالمساحيق الملونة ، يحمل آلة الغيتار ، ويتمايل أمامك بغنج ودلال مقابل بعض الروبيات .. من هو وقد ضاعت في ملامحه المزيفة كل معاني الرجولة .. وماذا بقي منه ليبني أسرة ؟ أو يبني دولة ، أو يبني حضارة ... أهذه الحياة فيك يا جاكرتا ؟! .. لقد جعلت من فيك يتخلى عن جلده ..

ودخلت إلى أحد مراكز التسوق ليلة رأس السنة ، فرأيت كيف ينفق الأغنياء أموالهم ... عربات ممتلئة بكافة أنواع المشروبات والحلويات والسكاكر وألواح الشكولاته .. إذن فالخير موجود .. ولكن أغلب الوجوه التي تمتلكه هي وجوه جاءت من مكان بعيد .. ففهمتُ سر الغضب الشعبي الذي اجتاح الشارع الإندونيسي خلال اضطرابات أيار/مايو ١٩٩٨م ، يوم قام البعض بنهب ممتلكات بعض الصينيين وإحراقها ..

وقابلت وجوهاً وضيئة ، تفور حماساً عندما يدور الحديث عن الإسلام ، وجوهاً متعطشة للمعرفة ،

تسأل وتسأل وتسأل ، عن كل كبيرة وصغيرة .. فأدركت ضرورة وجود أناس مخلصين ، يملكون سلاح العلم الصحيح والمعرفة الربانية ، سلاح الصبر والإصرار ، سلاح الأمل واليقين بالنصر ..

ورأيت من هؤلاء مخلصين ، وآخرين قد جعلوا من علومهم الدينية سلّماً للوصول إلى المال والشهرة والمنصب .. رأيت أن لقب « داعية » أو « أستاذ » هو لقب براق ، يحترمه الناس ويستدعونه إلى بيوتهم لينالوا من بركات صاحبه ..

ولاحظت بعض الأخطاء المرتكبة أثناء إلقاء بعض الخطب الدينية ، أخطاء في لفظ النص القرآني أو في ترجمته أو في استنباط ما فيه من مفاهيم ، فأدركت المسؤولية التي تقع على عاتق الدعاة والخطباء ، لأن العامة يقبلون منهم كل ما يقولونه .

ورأيت أن أي طالب قد تلقى علمه في إحدى جامعات « الشرق الأوسط » ، هو أستاذ شريعة في نظر أهله ومجتمعه حتى ولو لم يتم تعليمه بعد ، فهذا الشخص موثوق به أمين ...

وسط هذا الخضم ، ووسط هذه التساؤلات برز السؤال الأهم .. من أنت بين هؤلاء ؟ هل ستقررين العودة إلى دفء بيتك وأمانه .. ؟ أم ما زالت لديك بعض الشجاعة لتخوضي غمار هذا البحر الهائج الذي لا يرى شاطئه .. ؟؟